

هوية الأنثى الجديدة في الرواية النسوية المعاصرة -رواية تقاطع نيران أنموذجاً-

Th New female identity in the Fiminist Novel -Cross Fire Novel A Model-

ك. ليلي بلخير²

ahlem.mami@univ-tebessa.dz

belkheirle@gmail.com

ك. أحلام مامي¹

1 جامعة العربي التبسي – تبسة / الجزائر

2 جامعة قسنطينة 1- / الجزائر

تاريخ النشر: 2020/06/01

تاريخ القبول: 2020/01/21

تاريخ الاستلام: 2019/09/25

ABSTRACT:

ملخص البحث

The Arabic novelist feminist discourse is currently on a firm standing in the literary field, especially the Syrian writings. In fact, the most prominent of which is the novelist Samar Yazbek who imposed new transformations based on the feminist experience, handling its various issues. In its novels, she focuses on the new identity of the female, based essentially on transcending the thought power of the male, dismantling his system almost completely. She makes her narratives a mirror reflecting a distracted socio-political reality that blends stereotypes and innovation.

Keywords: Identity; Female; Novelty; Feminist; Cross.

يحظى الخطاب الروائي الأنثوي العربي اليوم بمكانة ثابتة في الساحة الأدبية، خاصة الكتابة السورية. وأهمها كتابات الروائية سمر يزبك التي فرضت تحولات جديدة تعتمد على التجربة الأنثوية وقضاياها، مركزة فيها على الهوية الجديدة للأنثى، والقائمة على تجاوز سلطة الفكر الذكوري وتفكيك منظومته، جاعلة من كتاباتها مرآة عاكسة لواقع سياسي-اجتماعي مشتعل مزجت فيه بين النمطية والتجديد.

كلمات مفتاحية: ، هوية، أنثى، جديدة، نسوية، تقاطع

1. مقدمة:

تعد الأنثى الركيزة الأساسية التي تبنى عليها المجتمعات، تساهم في بنائها وتقدمها، حاملة رسالة التفوق التي جعلتها تفرض نفسها في المجتمع ككل من جهة، ومصعب اهتمام الباحثين والعلماء والأدباء من جهة أخرى، مشكلة بذلك قضية عولجت على المستوى الفلسفي والفكري والأدبي والنقدي والثقافي، إذ تعددت فيها الاهتمامات وتضاربت الآراء واختلفت حول صورتها الحقيقية التي يجب أن تكون عليها في الأسرة والمجتمع.

¹ المؤلف المرسل: أحلام مامي.

فكان الاهتمام بها كبيرا في مجال الدراسات الأدبية، وخاصة فن الرواية؛ حيث سيطر هذا الموضوع على القلم الروائي الذكوري ولغته الاستعلائية أولا، إذ نجد الكثير من الروائيين قدموا لها صورا مختلفة حملت صفة النمطية، فظهرت في صورة الأنثى الخاضعة للفكر الأبوي بكل تقاليده وأفكاره، مؤكدين بذلك على طابع الهيمنة الذي تميزت به مجتمعاتهم، وأنه لا هوية أخرى للأنثى خارج مجتمعها الأبوي، لتأتي بعدها الكتابة الأنثوية كرد فعل على الطرح الذكوري محاولة إثبات هويتها المتراوحة بين العالم المنغلق والمفتوح مع إعادة النظر في صورتها الهامشية المقموعة بفعل سلطة الآخر الجائرة، فوجدت في الكتابة ملاذها الأكبر لتفكيك إجابات الآخر المستبدة التي أقرتها منظومته بحقها مع كشف المستور، وتقديم هوية جديدة مخالفة للصورة النمطية التي تعودت عليها منذ زمن. وظهر نص أنثوي يفسر واقع الأنثى العربية، مقدّما وجودها انطلاقا من رؤيتين مختلفتين؛ واقع تحكمه الرؤية المنغلقة على الذات، وآخر تنفتح فيه على وجودها المغيب وعالم الآخر معا.

ولقد مثلت الروائية "سمر يزبك" هذا الواقع من خلال مدوناتها التي جمعت فيها بين واقع الأنثى من جهة والواقع السوري المعاصر من جهة أخرى، انطلاقا من هذا الطرح نتساءل: ماهو واقع الأنثى في الكتابات الأنثوية العربية المعاصرة ؟ هل قدّمت بصورة نمطية خضعت فيها لقوانين الذكر أم أنّها خالفت الرؤية الذكورية المنغلقة لتتفتح بذلك على الذات؟ هل نجحت الكتابات الأنثوية في قتل كل ما هو ذكوري أم أنّ كتابتها مازالت بحاجة إلى ذكر؟

2. الأنثى والهوية:

1.2 الأنثى:

حظيت تيمة الأنثى باهتمام كبير من قبل الباحثين في الدراسات الأدبية سواء القديمة أو الحديثة مشكّلة بذلك قضية « ملحة ومفتوحة »¹، اختلفت فيها الآراء وتضاربت المفاهيم وتناقضت الأفكار حسب الجدة والثقافة والتاريخ، هذا التعارض جعلها تتنزل بين منزلتين مشكلة نظاما ثنائيا مزدوجا منذ العصور القديمة وحتى بعد مجيء الإسلام إلى يومنا هذا، فهي لها أهمية كبيرة في جميع مجالات الحياة، إذ انتقل هذا الاهتمام من مجالات أخرى إلى مجال الأدب، مقدمة إياها الأقلام الروائية في صور امتازت بالحرية في التناول والجرأة في الطرح، مع إعطاء تصور ذهني لها كما يتخيله الروائي مخالفا بذلك الدراسات الاجتماعية التي ركزت على الرؤية السلبية فقط والمتمثلة في خضوع المرأة واضطهادها²، والتركيز على فترة كانت الأنثى فيها تحس بغموض كبير يكتنف حياتها؛ خاصة مع تصريح لبعض الخبراء في مقالاتهم أنّ: « هوية المرأة تتجسد كزوجة وأم، فالرجل هو الذي يجعلها تشعر أنها على قيد الحياة ، لكن هذا الطرح في حقيقة الأمر بمثابة سلاسل تربطها عقليا وروحيا، سلاسل مكونة من أفكار خاطئة ووقائع يساء تفسيرها وحقائق غير مكتملة دفعت بصوتها الداخلي إلى الإفصاح: هل هذا كل شيء؟ أريد أشياء أكثر من الزوج والأطفال والمنزل...»³.

فحكم على المرأة بأنها طرفا ثانويا بعد أن كانت تمثل نظاما أموميا قائما بذاته له سلطته الخاصة إلى أن جاء الفكر الأبوي حاملا بذرة الدمار والموت، مقيما تعارضا بين كل ما هو سلبي وإيجابي داخل الإنسان

نفسه، واضعا حدودا فاصلة بين الجنسين: المرأة/الرجل، الايجابي/السليبي، الانتصار يرتبط بالايجابية بينما الهزيمة بالسلبية، وفي المجتمع الأبوي فإن المنتصر دوما هو الذكر⁴

فكانت المرأة مصورة في كل الإنتاج الأدبي (الكتابات الذكورية) على أنها «رمز للجنس أو على أنها مخلوق جميل يثير العواطف سواء النبيلة أو الخبيثة، فالمرأة تصوّر على أنها منبع للحب وللحنان دون أن يكون لها كيان مستقل، أي أن المرأة كانت دائما في الإنتاج الأدبي العربي مفعولا وليس فاعلا»⁵

وهي رمزا تعني أنها «معضلة مهمشة كرموز جنسوية في مجتمع، يضطهدها ويحتقرها، ويكثّف كل اضطهاده واحتقاره لها في الأيديولوجيا الجنسية»⁶، فهذا الطرح يؤكد أن الأنثى محكومة بإطار اضطهادي رسمته لها الثقافة الذكورية، لا يجب أن تخرج عنه؛ هذا ما جعلها تتفطن إلى قيمتها ووجودها المغيّب، ثائرة على القيم والمبادئ والقوانين التي سنّها الشريعة الذكورية محدثة ثورة مست جميع المجالات، ملغية فكرة التبعية والسلطوية والهيمنة التي ألزمتها بها التاريخ الإنساني، وذلك ابتداء ب: سيمون دي بوفوار التي تعدّ رمزا للمرأة القوية التي حاربت الرجل في مجال التنظير الأدبي والنقدي معا، بحيث فصلت بين مفهومين للمرأة «مفهوم سائد حملته الموروثات الاجتماعية والثقافية معنى الخنوع والدونية والتهميش والازدراء، ومفهوم جذري أصيل يشكّل الخصوصيات المميزة للمرأة بيولوجيا وحتّى نفسانيا وذهنيا عن الرجل/الآخر. إن مفهوم المرأة واحد في الحقيقة إلا أنّ حملته هي التي تتغير»⁷؛ أي المرأة في بدايتها الأولى تكون نتاجا للعلاقات الاجتماعية المتوارثة، ولن يتحقق وجودها الأصلي الحقيقي إلا بعد التخلص من هذه العلاقات التي هي في حقيقتها عوائق ليس إلا.

ولم يقتصر هذا الطرح عند المفكرات الغربيات فقط، بل تجاوزه إلى الباحثات العربيات، بحيث صرحت فاطمة المريني: «لم أكن أبدا امرأة، كنت دائما إنسانا، إن الآخرين هم الذين يريدون أن أكون امرأة، لكن أنا لا أتجزأ. انظر إلى العالم كإنسان بأنوثتي، بذكائي برغبتي في السعادة والإبداع»⁸.

والآخرين الذين تتحدث عنهم فاطمة المريني تقصد بهم المجتمع الذكوري الذي كبّل الأنثى بنظم فكرية وأطر أيديولوجية صارمة، واضعا مجموعة من القواعد والسياسات التي يجب أن تلتزم بها. لهذا جاءت الكتابات النسوية المعاصرة حاملة بذرة الرفض والثورة على الأوضاع السائدة التي عاشتها ولا زالت تعيشها، محاولة خرق كل القواعد وتفكيك كل القيود والتخلص منها باسم الكتابة والتجديد.

2.2 الهوية:

إن تقديم مفهوم ثابت للهوية يعدّ من المهام الصعبة، خاصة وأن هذا المصطلح يحتفظ بدرجة عالية من الترابط، إذ تصعب الإحاطة به نظرا للزئبقية التي يتميز بها. فيظهر كلما اهتز الكيان الحضاري لأمة من الأمم أو فئة اجتماعية داخل المجتمع الواحد محدثا بذلك تخلخلا في نظام القيم والعلاقات⁹. وعليه فأى محاولة لتعريفها تتوجب الحذر واليقظة باعتبارها خطابا «يشي بأزمة في الدلالات والقيم»¹⁰.

يعرفها "طوني بنييت" وآخرون في معجم "مصطلحات الثقافة والمجتمع" بأنها: «علامة تطابق مع الذات عند شخص ما أو جماعة اجتماعية ما في جميع الأزمنة والأحوال فهي تتعلق بكون شخص ما أو

جماعة ما قادر أو قادرة على الاستمرار في أن تكون ذاتها، وليس شخصا أو شيئا آخر»¹¹؛ أي هي الانتماء إلى رقعة جغرافية واحدة أو مجموعة أعراق متعددة مكونين بذلك هوية مشتركة.

والهوية ليس كما يرى أنها تراث يرتبط بفترة ماضية وينتهي بزوالها أو انتهائها، إنما هي أعمق بكثير تستمر مع الوقت وتتجدد محافظة على أهم المبادئ التي تشكّلها، وعليه يعرفها "جلال شوقي" بأنها «الوجود الاجتماعي النشط، الفعال، المتجدد، المبدع، فهذه أصالته، وهكذا تزدهر الأنا الاجتماعية أو الهوية، ومع التطور الاجتماعي وتغيّر الواقع تنشأ ثقافة جديدة (...) بنية جديدة للأنا الاجتماعية التي لا تنفي السابق ولكنها تعلوه، بينها تراكب واتصال وانفصال، وقطیعة معرفية تطورية»¹².

لذا فهي تتسم بطابع اجتماعي، ولا يمكن للفرد أن يشكل هويته خارج مجتمعه باعتباره كائنا اجتماعيا خاضعا لقوانين الجماعة وتقاليدها. ليصبح المجتمع هو الذي «يفرض عليه هويته من خلال الموقع الذي حدده للفرد داخل النسيج الاجتماعي العام»¹³. إذ تتميز بتنوعها واختلافها بحيث نجد:

- الهوية الشخصية التي لا تستطيع أن تتمفصل إلا ضمن البعد الوجودي الإنساني.

- الهوية القومية: يعتبرها "مارك بوستر" شكل من أشكال الوعي الجمعي يستلزم اكتسابا انعكاسيا للتراث الثقافي... ولا ينتشر إلا من خلال قنوات الاتصال الجماهيري الحديث... هذا ما يضيف على القومية السمات المصطنعة لشيء هو إلى حد ما، تركيب تصوري»¹⁴.

- أما الهوية الثقافية تتجلى في أنساق القيم والعادات والرموز والمعتقدات التي تعبر عن تراث ثقافي متراكم عبر العصور ويعرفها "ستيوارث هول" بقوله: «ليست معطى ثابتا أو متعارف عليه، وإنما هي تحول متواصل. إنها أمر يعتمد على الصيرورة، مثلما يعتمد على الكينونة؛ أمر يتصل بالمستقبل بقدر ما يتصل بالماضي. إنها ليست شيئا كائنا من قبل، فيتخطى حدود المكان والزمان والتاريخ والثقافة؛ ولكنها مثل كل شيء تاريخي، في تحول مستمر»¹⁵.

هذه التحولات التي طرأت على الهوية جعلت الإنسان بصفة عامة والفرد العربي بصفة خاصة يعاني من ازدواجية الهوية، أو إن صح التعبير تمزق الذات بين هويتين، الأولى هوية موروثية يكتسبها من المجتمع الذي يعيش فيه، والثانية هوية خفية مسكوت عنها، وهذا ما تؤكد "نوال السعداوي" بقولها: «نحن الأفراد وفي كل المجتمعات وشتى الثقافات نتعلّم من المهد إلى اللحد أن نستبدل قيمة أنفسنا بالقبول الاجتماعي، وتكامل شخصيتنا وأرواحنا بالتكيف الأخلاقي»¹⁶. لذا فالهوية ذات طابع اجتماعي، ولا يمكن للفرد أن يشكل هويته خارج مجتمعه باعتباره كائن اجتماعي خاضع لقوانين الجماعة وتقاليدها، «إذ أن المجتمع هو الذي يفرض عليه هويته من خلال الموقع الذي حدّده للفرد داخل النسيج الاجتماعي العام»¹⁷.

إذا أسقطنا هذا المفهوم على الهوية الأنثوية، سنجد أنها تستمد وجودها انطلاقا من مجتمع ذكوري فرض عليها مجموعة من الخصائص التي شكّلت هويتها وفق نظام سلطوي خالص، خاضعة لمبدأ الآخر، فتكون الإحالة على العالم الخارجي المرجع الأساس في بناء الهوية، إذ تعمل الذات المتحدثة على صياغة حاجز تحتمي وراءه لكي لا تنكشف دواخلها ولا ترجع إلى هذه الحياة الداخلية إلا في حالات ردود الفعل إزاء

الأحداث والأشياء والناس، وهذا ما يحدث بالضبط مع الهوية المؤنثة، تبدو وكأنها غائبة، ممسوحة داخل تسلسل عادات المجتمع ونظامه¹⁸.

فتفظنت المرأة إلى هويتها الغائبة والمسكوت عنها ضمن الفكر الأبوي ليصبح لها:

هوية موروثية ← صنعها المجتمع الذكوري ← تحكمها العادات والتقاليد.

هوية جديدة ← صنعها اللغة والتجديد ← تحكمها الخصوصية الأنثوية.

من خلال اللغة قدمت الأنثى نفسها كجسد ولغة وفكر، مقتربة من الآخر، مبتعدة عن الاعتبارات التي فرضتها سلطته المرجعية، معيدة النظر في صورتها الهامشية و المقموعة بفعل سلطة الهوية الموروثة، فكشفت من خلال فعل الكتابة المغيب والمستور وأعادت لذاتها الوجود الحقيقي.

لذا سنحاول في متن هذا البحث أن نسقط تمثلات هذا الكيان الوجودي على الأنثى وتحديد هويتها التي تراوحت بين الانغلاق والانفتاح، ومدى ارتباط سؤال الهوية بما تكتبه المرأة من ناحية التجديد، وذلك انطلاقاً من رؤية الكاتبة السورية "سمريزك" التي رسمت هذا المجال المفتوح والمتجدد للهوية الأنثوية.

3- هوية الأنثى من النمطية إلى التجديد:

بعد أن كانت الهوية قائمة في الرواية النسوية على مبدأ هام، تمثل في كشف المستور والمغيب وإثبات الذات، فإن نصوصها جاءت في صيغة لغوية جديدة مفككة للخطاب الذكوري وسلطته وأعرافه وتقاليده، ممارسة من خلاله العنف المعلن (ضد الذكر) والمبطن (ضد الأنثى النمطية)؛ مقدمة صورة جديدة للأنثى.

لقد أشار الناقد "عبد الله إبراهيم" أن الرواية النسوية «تتنزل في منطقة التوتر العنيف بين امرأة طالعة للعالم من أجل أن يكون لها مكان في الفضاء العام، وبين ثقافة ذكورية أممت هذا العالم لصالحها واحتكرته وصاغته طبقاً لشروطها ومصالحها»¹⁹. انطلاقاً من هذا تجسدت عزيمة الأنثى لمواجهة هذه المصالح الضدية، التي وضعها العالم الذكوري في خدمة مصالحه وتقديم رؤية جديدة يمكن من خلالها أن تظهر المرأة بعيداً عن الحكم الأبوي المتسلط، مما نتج عنها «صدام بين رؤية ذكورية غالبية ومهيمنة، ورؤية أنثوية ظاهرة لتوها تبحث عن ذاتها»²⁰.

والخروج من هيمنة التقليد إلى التجديد ومن الهامشية إلى المركزية، ومن الانغلاق إلى الانفتاح، التي مثلتها "سمريزك" في مدوناتها بصور مختلفة خرقت فيها التقاليد الأبوية وكسرت القيود السلطوية التي كانت تقف بينها وبين إثبات ذاتها المغيبة. وقبل أن نعرض هوية الأنثى في صورتها الجديدة كما رصدتها في مدونتها تقاطع نيران مبرزة كيف ساهمت الحرب السورية المعاصرة في تأسيس صورة جديدة للمرأة، فإننا سنقف عند عرض هوية الأنثى القديمة من خلال صورتها النمطية.

1.3 الأنثى النمطية:

قدمت الكتابة النسوية صورة الأنثى النمطية في إطار يحكمه الخوف المطلق للذكر ممارسة عليها الاستيلاء الكلي الذي يضمن له التبعية والخضوع التام، لذا فهي «ابنة المجتمع الأبوي المتمثلة لموروثه، والصادرة

عنه، القانعة بقيمه، والمحافظة على مثله، حتى لو عانت منه. إنه عندها كالقدر الذي قد يكون مدمراً لكن لا سبيل لردّه أو الثورة عليه، هذه المرأة ترى نفسها مخلوقاً أدنى من الرجل»²¹.

إظهارها في صورة الدونية والتبعية، يعتبر مساعداً أساسياً لترسيخ تقاليده، مما أدى إلى انعكاس هذه الرؤية على الحياة النفسية الخاصة بها أولاً والحياة الاجتماعية ثانياً، وجعلها طيّعة للبقاء تحت سيطرته وسلطته، فمعظم الروايات العربيات قدّمت الصورة النمطية لها في قالب القهر والمعاناة والخضوع والمحافظة على الموروث الذكوري من الضياع، هذا الأخير الذي يعد بوتقة لكل هذه السلبية التي تتصف بها. ويعتبر المجتمع هو السبب في إظهارها ناقصة، محددًا علاقته معها باعتبار توقيعاته المختلفة «فهو الأب والزوج، وهو دكتاتورية العادات والتقاليد التي تمارس على المرأة في المجتمع وتترك الرجل حراً له عاداته وتقاليده الخاصة به»²².

مما يضفي عليها أسلوب الخضوع والاستسلام، والدخول ضمن منطقة النفوذ الأبوي، محكومة بخطاب مهزوم خاضع لسلطته، قبلت فيه بأسلوب التنميط المستلب مقابل الحفاظ على حياتها القائمة على علاقات تميزت بالرضوخ والقلق والتنافر وعدم التكافؤ، والمشكلة في سياق منظومة اجتماعية ثقافية ذكورية مسيطرة أنزلتها مرتبة التابع المقهور، ورفعت من مكانة الآخر إلى المتبوع القاهر؛ أي العيش في نسق جاهلي يثبت تحجر عقلية المجتمع العربي الذي مازال يرى أفضلية المرأة على الرجل، ورفض الأنوثة وإلغاء صفاتها وتغييبها تغييباً تاماً.

هذه المرحلة التي عاشتها الأنثى واكتسبت فيها هويةً نمطية تعتبر أعلى مرتبة من مراتب الشعور بالاضطهاد، التي كان من المفروض أن لا تتواجد في المجتمعات العربية الإسلامية القائمة على كتاب الله وسنة رسوله، باعتبار هذين المصدرين حفظاً لكرامة المرأة وحقوقها، مانحين إياها المساواة مع الرجل، واعتلاء المراتب القيادية التي جعلها الرجل حكراً له تبعاً للذهنية الرجالية، وعليه فإن مشكلة المرأة ليست في التنظير لأن القرآن الكريم حدد بإنصاف مالها وما عليها، المعاناة الحقيقية تظهر على مستوى التطبيق²³.

لكن هذا الطرح النمطي لهوية الأنثى لم يقف حاجزاً أمام الروائية في عرض هوية جديدة لها متجاوزة سلطة الذكر وعنفوانه، مقيمة ثورة عنيفة على المركزية الأبوية وسلطتها، محاولة التحرر من كل القيود الذكورية الاستعلائية، ولقد كانت للحرب السورية تأثيراً كبيراً على لغتها وعلى تفكيرها الذي حرر الأنثى من القيود لا نقول كلها وإنما بعضها، فجاءت هويتها حاملة لصفة التمرد والمقاومة والتجديد وإعادة الاعتبار للوجود الأنثوي المغيب انطلاقاً من المسار السياسي الثوري.

2.3 الأنثى الجديدة:

هي الأنثى المستقلة عن كل ما ينم للسلطة الاجتماعية الذكورية بصلة معبرة بذلك عن هويتها الجديدة التي كانت مغيبة ومستورة باسم العنف الذكوري، وما جاء في الروايات النسوية العربية دفع بالمتلقي للبحث عن استراتيجية لاستكناه المسكوت عنه وإعادة إنتاجه وتأويله، وجعله يرى النور حاملاً بذلك قيمة تفوق أحياناً قيمة النص المكتوب²⁴. تصبح الأنثى المتحكم الأوحده في جسدها وفكرها وحرية متجاوزة قوانين السيطرة والخضوع التي كان يفرضها عليها الذكر، فحددت الروائية مسار هذه العلاقات انطلاقاً من وعيها الكبير

بأنوثة اللغة، إذ وظفت ذاكرة مؤنثة متخلصة من كل ما هو سلبى ورثها إياه الرجل، معبرة عن تيمات نسائية بلغة خاصة لا نجد لها في سرد الرجال.²⁵

معرضة نموذجا أنثويا متحررا قائما على مبررات اجتماعية قويّة، مقدمة انتصارا أنثويا في أوج مأساويته؛ انتصارا على الرجل حتى لو كان مضادا لأنوثتها في حدّ ذاتها، ومحاولة هدم النموذج الذكوري الأمثل وانتفاء الحاجة إليه، والتخلص من كل أنماط العادات والتقاليد التي تبناها المجتمع بحقها، مؤكدة على أن السلطة الاجتماعية تمتاز بالسلطة الثقافية لتلاحقها في جدّها ولهوها، حتى أن المساحة المسموح بها للهو كانت مرفوضة بحجة أنها ترهات.²⁶ لذا جاءت كتابات سمر يزبك متعالية على سلطة الذكر المتجبرة متحررة من قيود السلطة الظالمة صانعة ذاتها بذاتها، متخلصة من أساليب التهديد والعنف الذي عاشته الشخصيات الأنثوية، معطية لنفسها نوعا من الحرية، لتنتقل بذلك من الهامش إلى المتن متساوية مع الرجل في حرية ممارسة أي شيء قاتلة الضعف الأنثوي الذي سيطر عليها لردح من الزمن، محققة خلق صورة وهوية جديدة للأنثى المتمردة على الأنساق الذكورية، والثائرة على الأوضاع الاجتماعية متحررة من قيود السلطة الأبوية، ولقد جعلت سمر يزبك من مدونتها تقاطع نيران بابا مفتوحا للخروج من الأنساق الأبوية وعرض صورة أنثوية متجاوزة للنمطية، جامعة فيها بين هوية اجتماعية وثقافية وسياسية كانت للحرب السورية دورا كبيرا في بنائها وتشكيلها

أهم ما يميز هذه الأنثى الجديدة طموحها الكبير في تغيير الأوضاع الاجتماعية والسياسية المحيطة بها، باعتبارها تحمل قضية، تمثل بالنسبة إليها الدافع الأساسي لقوتها، مشكلة مواقف تسعى من خلالها إلى الحفاظ على مستقبل الوطن الذي يعد أثمن بكثير من مستقبلها الشخصي المتعلق برجل كان سببا في معاناتها، قد تمظهرت حاملة بواعث الثورة السورية المعاصرة، وآليات النظام السوري، معبرة عن وجهة النظر السياسية في نصها "تقاطع نيران" الممثل لموقع مجموعة قتالية وسياسية في مرمى نيران متعددة من العدو والصديق، كشفت فيه عن طبيعة العلاقات السياسية السورية المخلخلة للقوى المركزية، مناقشة قضية الطائفية التي جاءت على امتداد صفحات روايتها التي شملت خطين متناقضين مثلما كل من: طائفتي السنة والشيعة.

تتحدد ملامح هذه الشخصية الجديدة انطلاقا من فكرة الموت ومواجهتها له في فترة الحرب السورية المعاصرة، هذه التيمة (الموت) لم تكن وليدة الساعة في حياتها، وإنما رافقتها منذ طفولتها، صنعها مجتمعا بكل الطرق؛ موت تعودت على رائحته وصوره بكل أشكاله فهو، «الكائن المتحرك الذي يمشي على قدمين الآن، وأسمع صوته، وأحرق فيه، أنا التي تعرف طعمه، أنا التي تعرف طعم السكين على الرقبة، وطعم الأحذية على الرقبة، عرفته منذ زمن بعيد، منذ لحظة هروبي الأول من هذا العالم الضيق، ومن هروبي الثاني والثالث»²⁷.

توضح مواجهتها للموت من خلال صور متعددة مثلها عوالمها الثلاث المتجلية في الهروب من عالمها الأول الضيق الذي مثلته الأنوثة التي شكلت بوتقة للموت القاسي، والهروب من العالم الثاني الذي خرقت فيه

قوانين الطائفة العلوية ومجتمع جبلة وأوامر عائلتها، فأصبحت خائنة متمردة، عقوبتها الموت، فتظهر تيمة الموت عندها على الشكل الآتي:

التخلي عن عالم الأنثى — تجاوز واستعلاء — الموت

خرق قوانين العائلة والطائفة العلوية — خيانة وتمرد — الموت

الأزمة السورية ومقاومة الفساد السياسي — حرية وإثبات الرأي — الموت

إذ تقول: «لقد عبرت أمام الموت الأول، وأستعد لرؤية موت جديد»²⁸. ليصبح الموت بذلك ملازما لها على مدى الحياة، وموقفا يرسم شجاعتها بعيدا عن الصورة النمطية التي رسمها لها التفكير الذكوري بعاداته وتقاليده وصوره، مظهرة من ناحية أخرى عزميتها وقوتها في الدخول إلى مجال السياسة والثورة، وزيارة المناطق الملغمة بالوحشية والقتل، مصرحة «لم أعد أخاف الموت! نحن نتنفس الموت، أنتظره مع سيجارتي وقهوتي بهدوء (...) أعود وأعرف أنني لن أياس من تكرار تمارين العدالة، حتى لو فتحت صدري للموت»²⁹

قدمت الذات الساردة الأنثى البطلة في صور المقاومة والمتحدية، صور شكلتها عوامل اجتماعية بالدرجة الأولى في قولها (لم أعد أخاف الموت! نحن نتنفس الموت)، هنا تتجلى صورة الأنثى الجديدة الشجاعة، التي كسرت القوانين الظالمة في سبيل رسم هذا الطريق، والضمير نحن يعود أولا على مجتمع الأنثى بصفة عامة، التي قاومت الموت منذ لحظة ولادتها، كما صرحت البطلة سابقا، وعلى المجتمع السوري الذي يعاني من ظلم النظام واستبداده ثانيا.

والمتتبع لهذا المقطع السردي يلاحظ عزيمة الأنثى ومواجهتها في سبيل فداء الوطن بالنفس مقابل تحقيق العدالة التي لا يؤمن بها الذكر، ومنعدمة في دساتيره المستبدية، وعليه فهي تشير إلى ظلم الذكر من جهة، وانتهزاه وضياعه من جهة أخرى، مشكلة بذلك ثنائية ضدية جمعت بين شجاعة الأنثى وجبن الذكر الذي يحتفي بالأسطح، والبنائيات حفاظا على حياته، فمن «يقتل وراء الأسطح والأبنية؟ قاتل جبان هو؟ القاتل جبان، وكيف يمكن أن يكون شجاعا، فهو مجرد من شرطه الأخلاقي سلفا»³⁰.

فضمير المذكر الغائب (هو)، يحمل دلالة استهزائية للذكر والمجتمع الأبوي والنظام بصفة عامة، واصفة إياه بأنه مجتمع لا أخلاقي. وكأنها تضعه في بوتقة الهزيمة والنقص والضعف، لترفع بذلك من مكانة الأنثى التي تميزت بقوة المواجهة ووعي أكبر منه بوطنها، فتظهر بضميرها الحي الذي جعل منها ثائرة واعية بكلام شعبي، لتختفي بذلك الصورة السلبية التي كانت فيها فريسة للذكر وأوامره، وللحرب السورية التي رسمت مسارا حياتيا مختلفا للمرأة السورية ومنحتها فرصة أكبر للظهور وإثبات الذات في خضم السياق المتوتر الذي تعيشه سوريا بفعل الرجل.

وتأتي صورة القوة مرة أخرى في قولها: «أغادر البيت، باتجاه ساحات المدينة، باتجاه الجوامع. الآن في منتصف الظهيرة يجب أن أعرف شوارع المدينة، شارعاً شارعاً، وساحة ساحة، لا أصادف إلا عيني، ساحات المدينة خالية من ناسها، ربما لأن اليوم عطلة، لكن الجميع يختبئ في خوفه اليوم»³¹.

تجلى هنا قلب موازين المعادلة، فتتحول الأنثى من الهامش لتعتلي المركز وينزل الذكر من المركز ليصبح في الهامش، مؤكدة الاختراق العلني للقوى الذكورية التي كانت تفرض نفسها بقوة، محطمة مبادئ الشجاعة والفحولة المزيّفة، والأكثر من ذلك تقويض فحولته في المجال السياسي بالضبط الذي يعدّ مكنن قوة الذكر وحكرا عليه، ومن أهم القضايا التي ركزت عليها سمر من خلال الأنثى الجديدة، قضية موت الضمير العربي والسكوت الأخرس الذي يشمل الدول العربية إزاء قضاياها والذي مثلته بالسكوت الذكوري، وخاصة القضية السورية، فيظهر الضمير الأنثوي في المركز والضمير الذكوري في الهامش أو إن صح التعبير مختفي تماما، خاصة وأن الروائية عالجت أحداثا واقعية مما أكد حتمية الطرح وضمان مصداقيته، فبين مرحلة الإسلام المعتدل الذي لم يأت بعد، ومرحلة سفك الدماء؛ اللحظة الراهنة التي تعيشها، تتحرك هاته الشخصية بين المرحلتين لتقف مع لغة الدمار، مواجهة بذلك عائلتها وطائفتها التي اعتبرتها خائنة ونظام بشار الأسد الذي تتحكم فيه الشبيحة وغيرها، مبرزة أساليب القمع والاضطهاد السياسي الذي واجهته الأنثى البطلة بسبب الحرب السورية التي صنعت منها أنثى جديدة، فالنص الأنثوي الجديد يفيض بقيم البحث عن الذات الجديدة، والرغبة في مجارة الرجل والتعالي عليه، ولم تعد الأنوثة قيда بالنسبة لها، وعليه فبطلة "تقاطع نيران" امرأة متفتحة واعية ذات شخصية مستقلة في أخذ القرارات، تملك كل المقومات التي تجعل منها امرأة جديدة ثائرة، لا تخشى الخوف، متحدية الموت، متحملة الأوجاع والآلام من أجل الوطن الذي اتخذت فيه قرارا إما «الدماء أو الذلّ، لا مفر من أحدهما»³². فكانت أنثى جديدة في صورة مقاومة وثائرة في جو تنبعث منه رائحة الخوف والرعب والتحدي، وقد سعت الروائية انطلاقا من هذه المراحل التي عرضتها في نصها هذا إلى إطلاق العنان لصوتها وحضورها الجديد الذي قتله المجتمع الأبوي، مع تقديم الرجل في صورة سلبية تعبر من خلالها عن مجتمع ذكوري قيد حريتها ورفض وجودها كجنس له خصوصيته، معتبرا إياها شيئا جامدا.

الأزمة السورية هي أزمة المجتمع السوري أولا، أزمة العالم عامة والعالم العربي خاصة، لكن المرأة جعلتها أزمة رجل وامرأة على السواء، لأن هذا الواقع الذي نعيشه يفرض تواجد المرأة في كل المجالات وهذا ما عززته الحرب السورية من خلال صقل امرأة جديدة، مناضلة سياسية، وصحفية قيادية، تكون كلمتها أكثر صدقا وتعبيرا من كلمة الرجل.

فالحرب السورية وضعت المرأة في بوتقة التحديات، والأنثى كانت على قدر مسؤولية التحدي، والتجديد.

4. خاتمة:

في خاتمة البحث نصل إلى أن المرأة أثبتت وجودها وهويتها الجديدة مخالفة الصور التي قدمها لها السرد الذكوري من صور نمطية وهوية موروثية تقليدية حكمتها لفترة من الزمن، فظهرت متشعبة برؤية واعية وتفكيرها جوهريا تعي من خلاله معنى أن تكون امرأة ذات فاعلية في الأسرة والمجتمع، وأنها ليست مجرد شيء يتحكم فيه الآخر كما يريد فجاءت صورها متفاوتة بين التمرد والتحرر وكسر القيود التي قيدها بها الذكر، وقد كان للحرب السورية دورا كبيرا في تحديد هذا الصورة الجديدة للمرأة وصقلها.

5. الهوامش:

- ¹ صالح مفقودة: المرأة في الرواية الجزائرية، دار الشروق، الجزائر، ط2، 2009، ص: 09.
- ² -المرجع نفسه، ص، ص: 09، 10.
- ³ - حفناوي بعلي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، العاصمة-الجزائر، ط1، 2007، ص: 122.
- ⁴ - صبري حافظ: أفق الخطاب النقدي "دراسات نظرية وقراءات تطبيقية"، دار شرقيات، القاهرة-مصر، ط1، 1996، ص: 3.
- ⁵ - فوزية العشماوي: المرأة في أدب نجيب محفوظ، المشروع القومي للترجمة، القاهرة-مصر، ط1، 2002، ص: 12.
- ⁶ - حسين المناصرة: المرأة وعلاقتها بالآخر في الرواية العربية الفلسطينية، دار فارس، الأردن، ط1، 2002، ص: 35، 36.
- ⁷ - محمد معتصم: المرأة والسرد، دار الثقافة، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2004، ص: 08.
- ⁸ - أحمد شراك: الخطاب النسائي في المغرب: أنموذج فاطمة المريني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 1990، ص: 43، 44.
- ⁹ - محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف "المرأة، الهامش، المركز" إفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ص: 15.
- ¹⁰ -المرجع نفسه، ص: 15.
- ¹¹ طوني بينيت: مفاتيح اصطلاحية جديدة "معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع"، تر: سعيد الغاني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، 2010، ص: 700.
- ¹² -جلال شوقي: الفكر العربي وسوسيولوجيا الفشل، مكتبة مدبولي، مصر، 2002، ص: 25.
- ¹³ -محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف، ص: 20.
- ¹⁴ -المرجع السابق، ص: 25.
- ¹⁵ - مارك بوستر: الأمم والهويات وتكنولوجيا العولمة والنظرية الأدبية، تر: عادل عناني، إشر: عز الدين إسماعيل، المنار العربي، الجيزة-مصر، ص: 26.
- ¹⁶ -نوال السعداوي: المرأة والجنس "الأنثى هي الأصل"، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت-لبنان، 1974، ص: 57.
- ¹⁷ -محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف، ص: 20.
- ¹⁸ -المرجع نفسه، ص: 18.
- ¹⁹ - عبد الله إبراهيم: المحاورات السردية، دار الأمان، الرباط-المغرب، ط1، 2011، ص: 139.
- ²⁰ -المرجع نفسه، ص: 139.
- ²¹ إيمان قاضي: الرواية النسوية في بلاد الشام "السمات الهندسية والفنية" (1950-1985)، الأمان للنشر، دمشق-سوريا، ط1، 1992، ص: 57.
- ²² نهال مهيدات: الآخر في الرواية النسوية العربية "في خطاب المرأة والجسد والثقافة"، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 2008، ص: 14.
- ²³ -ليلى محمد بلخير: قضايا المرأة في زمن العولمة، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، د.ط، 2006، ص: 52.
- ²⁴ - فاضل ثامر: المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدي، دمشق-سوريا، ط1، 2001، ص: 22.
- ²⁵ - فاطمة بنت فيصل العتيبي: السرديات النسوية "دراسة تطبيقية على روايات رجاء العالم"، جامعة الملك سعود، الرياض-السعودية، 1430هـ، ص: 41.
- ²⁶ - رشا ناصر العلي: الأبعاد الثقافية للسرديات النسوية المعاصرة في الوطن العربي (1990-2005)، ص: 270.
- ²⁷ - تقاطع نيران "من يوميات الانتفاضة السورية"، دار الآداب، لبنان، ط1، 2012، ص: 12.
- ²⁸ - المصدر نفسه، ص: 40.
- ²⁹ - المصدر نفسه، ص: 13.
- ³⁰ -المصدر نفسه، ص: 14.
- ³¹ -المصدر نفسه، ص: 14، 15.
- ³² -المصدر نفسه، ص: 160.